

دراسات المستشرقين للرواية العربية تحت مجهر النقد الأخلاقي

Orientalists studies to Arabic novels under moral criticism

تبانني سلمى*

جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس (الجزائر)

selmalachabi@gmail.com

تاريخ القبول: 2024/12/22

تاريخ الاستلام: 2024/12/02

ملخص:

الاستشراق السلاح الناعم في الصراع الحضاري بين الاسلام والغرب فهو تمهيد للاستعمار من خلال علمنة الفرد المسلم وافقاده هويته هكذا عرّفه ادوارد سعيد و كانت سابقة إذ لم يعرّه أحد قبله بهذا الشكل ويكشف أهدافه وعمق تغلغله في صياغة عقلية وسلوك المجتمع الاسلامي. فقد أسهم في تشكيله وترسيخه أجيال من أصحاب الفكر والأدب وظهر في مختلف الدراسات وكانت الرواية العربية حقله الخصب لما لها من تأثير قوي في صناعة العقلية العربية، ولما اكتشف نجيب محفوظ منجمها الحقيقي الحياة الشعبية تمكن من بلوغ العالمية بل والحصول على جائزة نوبل لا لشيء إلا لتأثره بالفكر الغربي إذ امتلأت رواياته بالدعوة إلى القيم المأبوضة والتعدي الصارخ على الدين ومن هنا بدأ المستشرقون دراسة الأعمال العربية وترجمتها وفقا لأهوائهم وثقافتهم محرفين نصوصها دون أي استنكار تحت مسمى البحث العلمي وبذلك صار الاستشراق تقليدا أجنبيا ينتجه الآخر عتّا ويوظفه لصالحه ويعزز به بسط سيادته علينا ونحن إلى اليوم نعاني أضراره ولا سبيل إلى تجاوزها دون مواجهتها من خلال فهم أكبر وأعمق، وعلى الرغم من تعرض هذا التقليد إلى حملة نقد من مجموعة باحثين عرب وأجانب إلا أنّ المستشرقين لم يبالوا بأن يتصادم عملهم مع العقيدة أو الأخلاق أو التاريخ فالعمل الأدبي بالنسبة لهم ليس إلا مجرد شكل فني لا علاقة له بمضمون العمل.

الكلمات المفتاحية: استشراق؛ رواية؛ نقد؛ أخلاق؛ أدب.

Abstract:

The orientalism is not only the study of the oriental and Islamic world but it's a soft weapon with a dark side as Edward Said said used to destroy the Islamic identity. As novels are the mirror of society; orientalist studied the Arabic ones. So many novelists profited to reach greatness not only with their work (that is full of immorality) but with their loyalty to western thinking. This encouraged orientalist to translate and study their novels under the scientific research and human culture therefore orientalism became an occidental, cultural tradition made by the other and used for his interests. To fight it we have to think deeply and

stronger because orientalists don't care of any criticism as they think that literature is an art far from religion and morals.

Keywords: Orientalism; novel; criticism; moral; literature.

1. مقدمة:

شكلت العلاقة الفكرية بين الشرق والغرب إحدى أبرز القضايا الجدلية في الساحة الثقافية، وقد تجلت هذه العلاقة في ظاهرة الاستشراق التي أصبحت محط اهتمام كبير لدى المفكرين العرب والمسلمين. فقد ارتبطت الاستشراق بقضية الصراع الحضاري بين الإسلام والغرب، حيث كانت بمثابة امتداد للتبشير ومرحلة تمهيدية للاستعمار، فضلاً عن كونها محاولة للهيمنة على العقل الشرقي، وبخاصة العقل المسلم، عبر علمنته وإفقاده لذاتيته. الهدف كان أن يصبح الشرق فاقداً لهويته، بحيث لا يفهم نفسه إلا من خلال عيون المفكر الغربي، ولا يرى نفسه إلا في مرآة الآخر، ولا يعترف بقدرة عقله على الإنتاج المعرفي إلا من خلال العقل الغربي.

في كتابه الاستشراق، ألقى إدوارد سعيد الضوء على كيفية تأثير المصالح الاستعمارية والهيمنة السياسية على الكتابات الأدبية والفكرية والعلمية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر. وقد تناول من خلال دراسته لمؤسسة الاستشراق كيف تتداخل السلطة والمعرفة في تشكيل هذه الكتابات. فبالنسبة للفكر الأوروبي السائد، لم يكن الشرق والغرب مجرد مواقع جغرافية، بل كان لكل منهما تاريخ يحمل دلالات ورموزاً تساهم في تقسيم العالم إلى قسمين غير متكافئين. وفي هذا السياق، كان الشرق في الكتابات الأوروبية يُصوّر على أنه تجسيد لاحتياجات الغرب ومصالحه، ويتنقل هذا التصور عبر الأجيال.

وهنا يطرح التساؤل نفسه: لماذا اهتم المستشرقون بشكل خاص بأعمال أدبية معينة مثل أعمال يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس، وسليمان رشدي، ونجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وغيرها من الأعمال التي تروج للانحلال الأخلاقي والقيم الهابطة، وتتعدى بشكل صارخ على الدين؟ لماذا لم يحظَ أدباء آخرون مثل نجيب الكيلاني، أو عبد الرحمن العشماوي، أو أحمد علي باكثير، بنفس الاهتمام والتسليط الإعلامي، على الرغم من مكانتهم الأدبية الرفيعة؟.

- وهل يؤثر الموقف الأيديولوجي والسياسي للأديب في مدى نجاح أعماله وانتشارها على الصعيد العالمي؟
- وكيف استطاع نجيب محفوظ أن يفوز بجائزة نوبل للأدب عام 1988 عن روايته أولاد حارتنا التي حظرها الأزهر، رغم ما أثارته من جدل واسع، في حين أن هناك العديد من الأعمال الأدبية العظيمة في الأدب العربي التي تتميز بالاستقامة الأخلاقية والعقائدية ولم تحظَ بنفس الاهتمام؟

من خلال متابعة بعض النشاطات الاستشراقية، يظهر بوضوح أن هذا الاهتمام لا يتسم بالتوازن أو الإنصاف. فالغرب لديه أهداف محددة في ما يدرسه وما يتركه، مما يثير تساؤلاً عن دوافع هذا الاهتمام وأهدافه السياسية والثقافية، ويستحق الأمر أن يُدرس بعُمق.

2. ماهية الاستشراق وأثره على معرفة الآخر:

قبل ظهور كتاب إدوارد سعيد كان المقصود بالاستشراق حقلاً معرفياً يسهم فيه الباحثون في مجالات اللغات الشرقيّة وفلسفة الشرق وتاريخه، حيث يرى علي عيسى الخربوطلي، " أنّ حركة الاستشراق بدأت في أوروبا في العصور الإسلاميّة الوسطى عندما كان العرب يحتلون مركز الصدارة في الحضارة والعلم فبددوا دياجر الظلام التي كانت تستولي على أوروبا حينذاك فتأثرت شعوبها بهم و أقبلت بشغف على ورود منابعهم المتدفقة"¹.

ويرى إبراهيم عبد المجيد اللّبان "أن حركة الاستشراق بدأت في القرن العاشر الميلاديّ حيث ظهر الاهتمام بالعلوم العربيّة، ثمّ ازدهرت حركته في القرن الثاني عشر حين انتشرت تلك المراكز العلميّة في العالم الإسلاميّ وبدأ الأوروبيون يتوافدون إليها ليتعلّموا فيها"². وبعد أن عاد هؤلاء إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثمّ " أسست المعاهد للدراسات العربيّة أمثال مدرسة "بادوي" العربيّة، وأخذت الأديرة والمدارس الغربيّة تدرّس العلم في جميع بلاد أوروبا - يومئذ - واستمرّت الجامعات الغربيّة تعتمد على الكتب العربيّة وتعتبرها المراجع الأصليّة للدراسة قرابة ستّة قرون"³.

وبدءاً من ظهور الكتاب اكتسب المصطلح "معنى مغاير دالاً على الاسهامات التي شكّلت صورة الشرق بما يمهّد للسيطرة الاستعماريّة ويتوازي معها ويعزّز استمرارها. فالاستشراق بهذا المعنى مؤسّسة هائلة لها السّلطة والمرجعيّة، أسهم في تشكيلها وترسيخها أجيال من الشّعراء والرّوائيين ورجال السياسة والمؤرخين والباحثين في مختلف المجالات، والعاملين في الإدارات الاستعماريّة"⁴. "الاستشراق محيّل ونظرة وأسلوب في التمثيل والتّمثيل تتعلّق بصاحب النّظرة أكثر ممّا تتعلّق بموضوع النّظر. إنّها "معرفة" بالآخر تتضمّن الوعي بدونيته وتفوّق الأنا، كما تتضمّن علاقة القوى بينها"⁵.

ليس الاستشراق مجرد سلسلة من الأكاذيب أو الأساطير أو المؤامرات الشّيطانيّة بل خطاب يعيد إنتاج الواقع بإعادة تشكيله بما يعبر عن موقع صاحبه ومصالحه.

فإدوارد سعيد يؤكّد أنّه "لا وجود لمعارف صافية متجرّدة، فالمعارف وثيقة الصّلة بعلاقات القوى، والسّلطة القابضة التي ترشّح متغلّغلة، نافذة فيها مشكّلة بنيتها.

الاستشراق نسق معرفيّ متكامل، جملة من المعارف والممارسات ترسّخت في الوعي الغربيّ على مدى أجيال حاضرة في معاهد العلو، في المتاحف، في الدّراسات التّاريخيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة و اللّغويّة، وفي الرّوايات والقصائد والخطب البرلمانيّة وتقارير الموظفين في الإدارات الاستعماريّة، إنّها شبكة من المصالح تتخذ شكل خطاب مهيم ذي مرجعيّة، يمتدّ من السّلطة السياسيّة إلى الدّائقة الفنيّة مروراً بالمعايير الأخلاقيّة"⁶.

3. منهج الأخلاقي في الدراسات الاستشراقية:

لقد استخدم المستشرقون في دراساتهم للرواية العربية مناهج نقدية متنوعة، ومن بينها النقد الأخلاقي، الذي يعنى بمراجعة النصوص الأدبية من زاوية تأثيراتها على القيم الأخلاقية والاجتماعية. وتتمثل أهم جوانب هذا النقد في:

- **تحليل الشخصيات:** من خلال التركيز على مواقف الشخصيات وعلاقاتها مع المحيط الاجتماعي والسياسي، وكيف تعكس هذه العلاقات نظام القيم الذي تبناه المجتمعات العربية.
- **القضايا الاجتماعية والسياسية:** تتعامل الروايات العربية مع قضايا حساسة مثل الفقر، الطبقات الاجتماعية، الدين، الحرية. وبناءً على ذلك، يقوم المستشرقون بتقييم هذه المواضيع من خلال العدسة الأخلاقية، محاولين فهم ما إذا كانت الروايات تشجع على التغيير الاجتماعي أو تعكس مواقف اجتماعية تقليدية.
- **اللغة والرمزية:** يستخدم المستشرقون النقد الأخلاقي أيضًا لتحليل الرموز اللغوية والمجازات في الرواية العربية، والكيفية التي قد تكون هذه الرموز قد تنطوي على رسائل أخلاقية ضمن سياقاتها الثقافية.

4. اهتمام المستشرقين بدراسة وترجمة الرواية العربية وإبراز دورها في انعكاس أخلاقيات المجتمع العربي:

من الواضح لمن يتابع تطور الفكر العربي أن العقلية العربية قد رأت في فن القول وأسلوبه أحد أبرز وسائل النجاح والتأثير، مما جعل دراسة الأدب العربي أمرًا لا غنى عنه لفهم الحياة العربية وأماطها. فالأدب العربي لا يقتصر على كونه مجالًا أدبيًا فحسب، بل يقدم أيضًا منظورًا تاريخيًا غنيًا لدراسة الحياة والنظم العربية. وعلى عكس العديد من الشعوب السامية الأخرى التي اندثرت أغلب آثارها ولم تترك سوى نصوص صغيرة وسطحية، فقد ترك العرب إرثًا ضخماً من المخطوطات التي تسلط الضوء على مختلف مراحل تطوّرهم منذ القرن السادس الميلادي، وما قبله بنحو قرنين. ومن خلال هذا الإرث، يمكننا أن ندرك حجم الإنتاج الهائل في مجالات العلوم والفنون والآداب الذي أنتجته هذه العقلية القوية عبر العصور. كانت اللغة العربية، علاوة على كونها لغة الوحي الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، أداة تعبير عن تجربة إنسانية فريدة، أضاءت الطريق أمام العقل البشري لقرون طويلة، قبل أن تنتقل هذه التجربة إلى العقلية الغربية التي تبنتها وأضافت إليها قوة كبيرة، مما أسهم في تقدم الحضارة الإنسانية عبر الشعر والنثر، كوسيلة للتعبير عن أعمق المعاني الإنسانية.

لا شك أن فن الرواية قد أصبح له مكانة بارزة في الأدب العربي، حيث تمكن في فترة زمنية قصيرة من توسيع دائرة قرائه حتى أصبح ينافس فن الشعر، الذي ظل طوال تاريخ الأدب العربي قمة لا يبلغها أي نوع أدبي آخر.

وإذا أردنا إثبات ذلك، يكفي أن نذكر قدرة الروائيين العرب على الانتقال من المستوى المحلي والعربي إلى المستوى العالمي. فقد تمكن الأديب المصري نجيب محفوظ من الفوز بجائزة نوبل، مما جعل الرواية المصرية نموذجًا يحتذى به بين الكتاب العرب، الذين بدأوا يقلّدون أسلوبه ويسيروا على طريقه. ومع مرور الوقت، بدأت الرواية

العربية تكتسب سمات متميزة، خاصة مع جيل الرواد مثل توفيق الحكيم وطه حسين، والمازني، ويوسف إدريس، وغيرهم.

من المؤكد أن فن الرواية قد استطاع أن يحتل مكانة متميزة في الأدب العربي، حيث تمكن في فترة زمنية قصيرة من جذب جمهور واسع، حتى أصبح ينافس فن الشعر الذي ظل لقرون طويلة القمة الأدبية التي لا يرقى إليها أي نوع أدبي آخر.

ولإثبات هذا التحول، يكفي أن نذكر قدرة الروائيين العرب على الانتقال من الدائرة المحلية والعربية إلى الدائرة العالمية. فقد تمكن الأديب المصري نجيب محفوظ من الفوز بجائزة نوبل للأدب، مما جعل الرواية المصرية تشكل نموذجًا يُحتذى به بين الكتاب العرب. ومع مرور الوقت، بدأت الرواية العربية تتسم بسمات فنية خاصة، خاصة مع جيل الرواد مثل توفيق الحكيم، و يوسف إدريس، وطه حسين، محمود المازني، وغيرهم من الأسماء البارزة التي ساهمت في تشكيل ملامح الرواية العربية الحديثة.

حتى اكتشف نجيب محفوظ المصدر الحقيقي للإبداع في الحياة الشعبية، حيث ظل متمسكًا بهذا المناخ حتى وضع الأسس الجوهرية للرواية العربية الحديثة.

ومع مرور الوقت، بدأ المستشرقون في ترجمة الأدب العربي إلى لغاتهم، ولكن هذه الترجمات كانت تترك آثارًا سلبية على بنية الرواية العربية وتطورها. إذ غالبًا ما كانوا يتدخلون في النصوص المترجمة، سواء بالإضافة أو الحذف، بما يتوافق مع ثقافتهم وأهوائهم. بل إنهم في كثير من الأحيان كانوا يستعرضون ثقافتهم للمقارنة، حيث يدرجون في الترجمة أبياتًا من الشعر العربي القديم ويقارنون بين ما قاله الشاعر العربي وما ورد في الرواية، وكأن هذه الإضافات جزء من النص الأصلي نفسه.

ما كان للعرب، وهم أمة ذات تاريخ طويل وحضارة ناهضة، أن يقيموا علاقة ثابتة أو متماسكة مع الاستشراق، ذلك التقليد الثقافي الذي ينتجه الآخر (The Other) عنهم. هذا التقليد لا يعدو أن يكون نتاجًا معرفيًا وظيفيًا موجّهًا لخدمة مصالح المجتمع الغربي في مواجهته مع العالم العربي، ويعمل على تعزيز النفوذ والسيطرة على مقدراتنا. إنه نوع من المعرفة التي تضر بنا أكثر مما تنفعنا، فنبقى موضوعًا لهذه المعرفة دون أن نتمكن من التأثير في إنتاجها أو في دلالاتها. نحن في مركز هذه المعرفة، ومع ذلك لا نملك القدرة على تشكيلها أو تصحيحها بما يخدم مصالحنا. كل جانب من جوانب الاستشراق بالنسبة لنا مشكل ومبهم، ولا سبيل لتجاوز هذه الإشكالية إلا بمواجهة هذه المعرفة وفهم طبيعتها المتغيرة بعمق أكبر.

ومن أبرز ما يلفت النظر في الدراسات الاستشراقية هو أن هذه العلاقة الإشكالية بين "نحن" و"الاستشراق" كانت وما تزال وراء موجات النقد التي تعرض لها هذا التقليد الثقافي من قبل عدد من المفكرين والباحثين العرب داخل الوطن العربي وخارجه في العقود الأخيرة، مثل إدوارد سعيد، وأنور عبد المالك، والطّيّاوي، وهشام جعيط، ومحمد أركون، وعزيز العظمة، ورنّا قباني، وغيرهم،

وكذلك من قبل مجموعة من الباحثين الغربيين مثل بريان تيرنر، ومكسيم رودنسون وغيرهم من مستشرقى الجيل الجديد الذين لم يعودوا يؤمنون بعصمة هذا التقليد الثقافي، وأدركوا أنه مجرد تراكمات نصوص دنيوية تم إنتاجها في سياق ثقافي معين".

وفي هذه الحملة النقدية، العربية والغربية على حد سواء، يمكن للمرء أن يتوقف طويلاً لتأمل فصولها المختلفة. وقد يكون ذلك مريحاً لأولئك الذين يشعرون بأن عليهم مواجهة كل من يمس تقاليدهم وثقافتهم ولغتهم وتاريخهم وعقائدهم وأعرافهم ومجتمعاتهم. لكن في رأيي، لا يبدو أن هناك فائدة حقيقية من هذا الجهد، على الرغم من أن هناك جدوى محدودة قد تترتب عليه. بل على العكس، إن محاولة تصحيح ما أنجزه المستشرقون عنا في مختلف مجالات حياتنا لن يضيف إلا مزيداً من الإحباط والمرارة، فهو جهد ضائع لا يساهم في تحسين وضعنا الثقافي أو التاريخي، ولا في معالجة الصورة التي رسمها هؤلاء عنا.

من جهة أخرى، نجد أن المستشرقين قد استغلوا الأدب بشكل عام، والرواية بشكل خاص، وركزوا على اختيار أعمال معينة لترجمتها، معتبرين أن 'العمل الأدبي ليس إلا شكلاً فنياً بحثاً، وأن التدقيق الأدبي يتعلق فقط بهذا الشكل الفني، دون أن يكون للمضمون أي تأثير'. وبناءً على ذلك، لم يكن يهمهم المحتوى الذي يتضمنه العمل الأدبي، حتى وإن كان يتناقض مع العقيدة التي نتمسك بها، أو مع الأخلاق التي نعتبرها أساس سعادتنا وسلامتنا كأمة. ولم يبالوا أيضاً إذا كانت الرواية تسيء إلى تاريخنا المشرف أو إلى الرموز الدينية والإنسانية التي نعتبرها مرجعاً ومثالاً أعلى لنا".

"وهنا يبرز سؤال مهم: هل يستطيع المسلم السكوت على الصورة التي قدمها جرجي زيدان لمحمد بن أبي بكر الصديق في روايته 'عذراء قريش'، والتي تظهره في صورة عاشق يغرق في حب فتاة لدرجة أن هذا الحب يدفعه للثورة على الخليفة عثمان بن عفان؟ بل إنه يتنافس مع الحسين بن علي على حبها، مما يولّد صراعاً غرامياً بينهما. هذه صورة مختلفة لا تمت للحقيقة بصله، وقد اعترف زيدان نفسه بأنه كان يدرج قصصاً غرامية في رواياته التاريخية لجذب القراء. فكيف يمكن للمسلم أن يقبل بهذا التزوير التاريخي؟"

"وكيف يقبل المسلم الرواية التي يزعم فيها زيدان في 'شارل وعبد الرحمن' أن القائد المسلم عبد الرحمن الغافقي في معركة بواتيه قد ألقى بنفسه في النهر يائساً بعد هزيمة المسلمين أمام شارل مارتل؟ هذه الحادثة لا تمت للواقع بصله، بل هي اختلاق لا أساس له من الصحة. فهذه الحكاية تمثل تزويراً صارخاً للحقيقة التاريخية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهلها أو تمريرها على الضمير المسلم".

لقد أثار أسلوب زيدان في تناول التاريخ الإسلامي وانتقاده بطرق غير دقيقة استياءً واسعاً بين العلماء والمتقنين. فبينما حاول البعض في موسوعة 'The Encyclopaedia' تبرير أعماله بالقول إن النقد جاء من تعصب المسلمين المحافظين الذين ضايقهم تناول أحد المؤلفين المسيحيين لموضوعات إسلامية، إلا أن هذا التفسير ليس مقنعاً. فالنقاد لم يعترضوا على زيدان بسبب خلفيته الدينية أو الثقافية، بل لأنهم وجدوا في رواياته تحريفاً للحقائق التاريخية، وكانت مطالباتهم محصورة في ضرورة احترام الحقيقة التاريخية وعدم تقديمها بشكل مشوّه.

5. التحديات في النقد الأخلاقي الاستشراقي:

على الرغم من أهمية النقد الأخلاقي في فهم الرواية العربية، إلا أن هناك تحديات كبيرة تواجه المستشرقين في هذا المجال:

- **التحيز الثقافي:** قد يحمل النقد الأخلاقي في الدراسات الاستشراقية بعض التحيزات الثقافية التي تفرض رؤية غربية على الأدب العربي، مما يؤدي إلى تشويه الصورة الحقيقية للقيم والمفاهيم الأخلاقية في المجتمع العربي.
- **الاختلافات الثقافية:** يمكن أن يؤدي اختلاف النظام الأخلاقي بين الشرق والغرب إلى سوء فهم أو تبسيط المواقف الأخلاقية في الروايات العربية.

6. خاتمة:

فصل القول في هذه القضية أن الإنسان لا يمكنه أن ينقسم على نفسه، فيمدح عملاً أدبياً يمس جوهر ما يؤمن به من دين أو يتعارض مع القيم الأخلاقية التي يعتز بها. هذا لا يعني أنه يجب عليه بالضرورة أن يمدح كل عمل أدبي يعكس هذه القيم، حتى وإن كان العمل الفني نفسه رديئاً. فمن غير المعقول أن تؤمن بالإسلام وأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله، وأعترف بعظمته في الأخلاق، ثم أقبل بأي هجوم عليه أو على دينه بحجة أنني أقرأ عملاً أدبياً، وأن الجانب الفني فقط هو ما يهم. كذلك، لا يمكن للمسلم الذي ينفر من الزنا والخمر أن يقبل رواية تدعو إلى الفواحش أو تزين الخمر. من يفعل ذلك، إما أن يكون مصاباً بانفصام في شخصيته، أو أنه يعاني من ضعف في الوازع الديني ولا يجد حرجاً في ارتكاب المعاصي وتبريرها، أو أنه منافق يظهر الإسلام ويبطن غيره".

أما فيما يتعلق بالمواقف التي وقفتها بعض الشخصيات المنتسبة إلى الإسلام، مثل دعمهم لسلمان رشدي في الآيات الشيطانية أو لحيدر حيدر في وليمة لأعشاب البحر، بحجة الدفاع عن حرية الإبداع الأدبي، فيجب أن نلاحظ أن هاتين الروايتين تمثلان بإساءات بذينة لا يمكن تبريرها، تتجاوز كل الحدود في الهجوم على الله ورسوله. هؤلاء الذين يدافعون عن هذه الأعمال يدعون أنهم يناصرون حرية التعبير، مؤكدين أن العبرة تكمن في الجانب الفني فقط. لكن الحقيقة أنهم يرفعون من شأن من يتبعهم ويذمون من يعارضهم، في تناقض واضح مع مبادئ الدين والقيم"

"لقد أثر المستشرقون الذين درّسوا في الجامعات العربية، وكذلك الطلاب الذين توجهوا إلى الغرب لدراسة الأدب العربي، في تشكيل مشهد ثقافي مضطرب في العالم العربي. فقد تركوا وراءهم إرثاً ثقافياً فاسداً على مدار نصف قرن، حيث أصبح السطو على أعمال الآخرين أمراً شائعاً، تحت مظلة البحث العلمي والعالمية الثقافية. ونتيجة لذلك، أصبح الأديب العربي يكتب بقلم غيره، والفيلسوف يفكر بعقل آخر، والمؤرخ يكتب تاريخه بنظرة غربية عن ثقافته، والفنان يعبر عن نبض مختلف عن تراثه".

"ورغم أننا لم نطلب من الغرب أن يهتم بموروثنا الأدبي الحديث، إلا أنه أولاه اهتمامًا كبيرًا، واختار من أعمالنا ما يخدم أهدافه في نشر أفكاره، إذ يدرك أن الأدب، وخاصة الرواية، هو أحد أهم وسائل التقارب بين الشعوب. من خلال الأدب، يمكننا أن نتلمس ملامح الشخصية الحقيقية لأي شعب".

"فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب عام 1988 كان بمثابة نقطة تحول في الاهتمام بالأدب العربي الحديث. ومع ذلك، كما أشار أحمد أبو زيد، فإن هذا الاهتمام كان نتيجة لتأثر محفوظ بالفكر الغربي، خاصة من خلال تأثره بمفاهيم ماركس وفرويد وداروين. فقد وجدت الدراسات الغربية في رواية أولاد حارتنا ما يخدم أهدافهم في تحطيم المقدسات الدينية والتشكيك في القيم الروحية".

"هذا التأثير بالغ الغرب في عمل محفوظ جعله مليئًا بالدعوات إلى القيم الهابطة والفساد الأخلاقي، حيث تم الترويج للهو والفساد والسخرية من الحياء، بل والتجاوز الصارخ على الدين. وقد أشار البعض إلى أن نجيب محفوظ عرف لدى "الأصوليين" بتهجمه على الإسلام، واتهمه آخرون بأنه كان معاديًا للدين لفترة طويلة".

"إن غض الطرف عن الأدب الذي يروج للانحرافات هو كمن ينشئ مستشفى لعلاج الأمراض الصدرية ثم يلوث الهواء ويفرض الدخان على مرضاه. ما نطالب به ليس أن يكون الأدب دعوة للتدين أو وعظًا مباشرًا، بل أن لا يتعارض مع الدين والقيم الأخلاقية التي نعزز بها. القاعدة التي نريد تأسيسها هنا هي أن الأدب لا يجب أن يدعو للكفر والانحلال الأخلاقي، بل أن يكون بعيدًا عن ترويج هذه القيم. في الوقت ذاته، ليس من المطلوب أن يكون الأدب بوقًا للوعظ الديني، فالأديب ليس ملزمًا بتقديم قيم معينة، ولكن لا يمكن السكوت على عمل أدبي يهاجم ما نؤمن به ونعزه".

"لقد كانت المعركة الاستعمارية ليست فقط من أجل السيطرة العسكرية ونهب الموارد، بل أيضًا جزء من استعمار فكري وثقافي خفي. فالتوسع الاستعماري كان مدعومًا من قبل العديد من المفكرين والكتّاب الأوروبيين، وكان إنتاج الصورة وترويجها جزءًا من هذا المشروع الاستعماري. لذا، يصعب فهم كبار الكتّاب الأوروبيين مثل جين أوستن وشارلز ديكنز وألبير كامو إلا في هذا السياق".

"إن أحد العوامل الأساسية التي أثرت في بعض الأدباء العرب الذين نشروا روايات تروج للرديلة هو تأثرهم بالفكر الاستشراقي والفكر الغربي. وبالتالي، أصبح من الواضح أن التصدي لهذا الهجوم الثقافي والاستعماري الخفي يكمن في نشر الوعي بين الشباب، وخاصة بين أولئك الذين يتلقون تعليمهم في الغرب، لكي يفهموا الأبعاد الثقافية لهذا الهجوم ويكونوا قادرين على مواجهته بأساليب فكرية نقدية، وبالتالي استرجاع قيمهم وبناء نهضة ثقافية وحضارية للأمة".

7. الهوامش:

¹ - يحي مراد ، معجم أسماء المستشرقين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 31 ماي 2004، ص 28 .

² - يحي مراد، افتراءات المستشرقين على الاسلام والرد عليها، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 2004، ص 36.

- ³ - مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ط4، دار الوراق دار النيربين للطباعة والنشر والتوزيع: 2003، ص 18. انظر، أيضا عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، ط8، دار القلم، دمشق: 1420هـ/2000م، ص 122.
- ⁴ - رضوى عاشور، لكل المقهورين أجنحة، الأستاذة تتكلم، ط1، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة، مصر: 2019م، ص64.
- ⁵ - المرجع السابق نفسه، ص221.
- ⁶ - المرجع السابق نفسه، ص221.

8. قائمة المراجع:

1. رضوى عاشور، لكل المقهورين أجنحة، الأستاذة تتكلم، ط1، (القاهرة، مصر: دار الشروق، مدينة نصر، 2019م).
2. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، ط8، (دمشق: دار القلم، 1420هـ/2000م).
3. مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ط4، (دار الوراق دار النيربين للطباعة والنشر والتوزيع، 2003).
4. يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين، ط1، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 31 ماي 2004).
5. يحيى مراد، افتراءات المستشرقين على الاسلام والرد عليها، ط1، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 2004).